الاقتصاد الإسلامي

مدخل ومنهاج

للأستاذ الدكتور عيسى عبده

تحت هذا العنوان يكتب الأستاذ الدكتور عيسى عبده ، سلسلة مقالات يهدف بها إلى تقريب فرع هام من فروع الدراسات الإنسانية التى ظن المسلمون — لبعض الوقت — أنها من ابتكار الغرب أو من الأمور التى يتنازع عليها الغرب والشرق دون أن يكون للأمة الإسلامية نصيب يذكر فى هذا الأمر كله . . ويقول الكاتب « إن الاقتصاد الإسلامى ينفرد بالكمال مع الثبات .. وشأنه فى ذلك شأن كل الضوابط والمعايير المعروفة فى الأمور الإنسانية » .

وهكذا يرى القارىء أن البون شاسع بين مايدعيه المستشرقون والمستغربون وبين مايقوله هذا الكاتب الإسلامى المعروف . . ومن ثم كانت المجلة حريصة على التعريف بوجهة نظره ، راجية من كل دارس ومن كل غيور على الإسلام أن يدلى بما عنده حول هذا الموضوع الهام .

والله ولى التوفيق

رئيس التحرير

* * *

بين يدى هذه الدراسات

يود الكاتب أن يشير بالتقدير وبالثناء إلى بعض الجهود التى بذلها المؤلفون الغيورون على الإسلام حين كتبوا عن الاقتصاد الإسلامى فى تاريخ قريب . . ربما كان من بعد الحرب العالمية الثانية حين هبت أعاصير الفكر الاقتصادى على بلاد المسلمين . . فظهرت دراسات شتى فى فروع كثيرة . . منها الملكية وإجارة الأعيان وإجارة الأشخاص والائتمان والتأمين والفوائد والربا والزكاة . . إلى آخر ماذهب إليه المؤلفون فى اجتهادهم — أجزاهم الله خيراً — ومنهم من حاز الدرجات العلمية فيما أسماه « الاقتصاد الإسلامى » ولكن مادة

هذه المؤلفات ؛ مستمدة من كتب الفقه .. كما كتبها الأولون . . ومن ثم كانت المادة مهيأة لكل قارىء ولكل كاتب يقتبس منها ويزيد أو ينقص . . ولكن [redacted] الاقتصادية بخلاف ماتقدم ذكره . . ذلك أن الفقه ثروة كبيرة القدر ولكنها ليست من صميم الدراسات الاقتصادية ..وهذه نجدها فى كتاب الله وفى السنة الشريفة وفى مراجع متفرقة من كتب الأدب وكتب التاريخ . . ولكن لايتهيأ للكاتب أن يميز بين ماهو من صميم « الاقتصاد » وبين ماعداه من فروع المعرفة إلا إذا كانت حصيلة من هذه المادة شاملة لكثير من مدارس الفكر الاقتصادى والنظرية الاقتصادية لأهم المدارس التى عاشت من عهد الإغريق إلى يومنا هذا .. مع العلم — فى الوقت ذاته — بالاتجاهات المرتقبة استنادا إلى « مؤشرات العصر » فمثلا نرى الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ، جميعاً يقترب بعضها من بعض . . وتكاد تتلاقى فى ميادين التطبيق . . ومن خير من كتب فى هذا الموضوع الأستاذ « هالم » إذ رأى فى كل هذه المذاهب ظاهرة واحدة . . هى « تكتل القدرات المالية والبشرية فى تجمعات يحكمها إطار جامع ، واتجاه هذه التكتلات إلى سحق الفرد أو النزول به إلى مستوى الأداة الصماء » .

وعلى كثير من الصبر والأناة فى دراسة متصلة لعشرات السنين .. رأى الكاتب بوضوح أن الإسلام نسق مميز وليس له ضريب .. لأن قواعده الكلية وحى من عندالله .. وماهى فكر ولا تحليل ولارأى ولا إرادة فرد .. وشتان بين ما كان وحياً من عند الله وما كان اجتهادا من عند الناس . فالناس قد تهتدى للصواب بالفطرة . وقد لاتهتدى . كما أنها قد تثبت على ما اقتنعت به . وقد تعدل عنه رغبة أو رهبة .

هذا ويرجوا الكاتب أن يصبر القارىء طويلا .. حتى يحيط بشىء من أوليات الاقتصاد فيما يقال له « المدخل » قبل أن يصل إلى طلبته من المادة الإسلامية التى تبحث فى أمور ثلاثة هى : الطيبة ، والخدمة ، والزينة ، فهذا هو ميدان الاقتصاد الإسلامى . . وهذا مالم يدركه الأولون والآخرون. وإنما تفرد به القرآن الكريم فى قوله تعالى (وماأوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وماعند الله خير وأبقى أفلا تعقلون) .

ولقد يعجب القارىء حين نقول له : أن المدارس الاقتصادية التى فرضتها المناهج فى جامعاتنا وفى معاهدنا قد جهلت حقيقة الميدان الذى تقع فيه جملة هذه الدراسات . ثم يتقضى العجب حين يعلم بأن الإسلام وحده هو الذى احاط .. ولا نريد أن نستعجل من المادة الاقتصادية مايجىء دوره بعد المدخل . . ولكننا نريد وحسب أن نذكر القارىء بأن

فيوض المعرفة التي احتواها التراث الإسلامي جديرة باتخاذ الأسباب . . ومن الأسباب أن نأ للامة سريعة بالقليل من العلوم الخادمة التي توضح لنا، فيما بعد، ماهية الاقتصاد الإسلامي.

وهذه هي الحلقة الأولى من سلسلة المقالات .

والله المستعان ؟

عيسى عبده

* * *

الحقيقة الاقتصادية وعلم الاقتصاد

لقد أجمع الثقات من الباحثين في هذا الميدان من كتاب الغرب الصناعي المتقدم بوجه خاص على إتخاذ عام ١٧٨٩ تاريخا للبداية المبكرة لظهور الدراسات الاقتصادية بالمنهج العلمي . . ولهم في هذا الاختيار أقوال يجيء ذكرها في مناسبته.

كذلك أجمعوا على امور جديرة بالتركيز والاحاطة قدر المستطاع في هذه الكلمات :

— يقولون بأن الأصول القديمة لدراسة الثروة ومشكلاتها مستقرة في التراث الإنساني القديم من غير شك . . ويذكرون من فلاسفة الاغريق ومشرعي اليونان طائفة اشتهر أمرها بين الدارسين كأفلاطون وأرسطو وأكسنافون وصولون ، ثم يفصلون بين هذا القديم وبين العصر الذي بدأ مع الثورة الصناعية ومع الثورة الفرنسية في وقتمعا. ويمرون مروراً سريعاً على ما بين هذين التاريخين ويكتفون بالقليل من البحث فيما صاحب الرسالات السماوية تباعا وما كان في العصر الوسيط . . ويقفون عند مائتي عام مضت ، ويقولون : من هذا التاريخ بدأت بواكير علم الاقتصاد !

— والأمر الثاني الذي يجمع عليه الثقات هو أن الاقتصاد فرع من جملة دراسات متكاملة منها الأخلاق والمنطق ، ومنها الفلسفة والإجتماع والنفس والسياسة ونظم الحكم. . وعلى الرغم من أن الاتجاه التحليلي وإدخال الرياضيات في دراسة الظاهرة الاقتصادية يتزايد . . فإن فريقا من الباحثين من ذوي السمعة العالمية ، يضيقون بهذا الاتجاه وينكرون جدواه . . بل أن منهم من يسميه ترد علميا ويشدد في تغليب القول بان الاقتصاد من الدراسات الإنسانية أساسا . . وإن إدخال الرياضيات في هذا النوع من المعارف ، لم يبرر الجهد المبذول في عشرات السنين ، على خلاف الحال في علوم الجوامد والطاقات حيث العناصر الفزيائية الثابتة هي الغالبة أو هي الوحيدة في الميدان .

— ومن الأمور المتفق عليها كذلك أن طائفة من الحقائق العلمية والظاهرات الاجتماعية

التى أثرت فى سلوك الأفراد والجماعات خلال مائتى عام مضت قد سارت معافى موكب واحد. منذ أن سقط الباستيل وبدأ تاريخ الثورات القريبة والمعاصرة ، فى شئون الطاقة والموارد الطبيعية وانتفاع الناس بهذا التقدم التكنولوجى الذى بدأ عندئذ فى صورة غير مسبوقة ولم يتوقف .

وهكذا ترى ظاهرات يتأثر بعضها ببعض . . وقد تتقارب المسافات أو تتخلف بعض الشىء . . وإنما موكب التقدم الاجتماعى والصناعى لا ينفصل بعض مفرداته عن بعض.

ويذكرون على سبيل المثال : المزيد من الافادة بموارد الطبيعة مع خفض التكاليف والتوسع فى الأسواق وتقدم وسائل المواصلات والنقل . يذكرون هذا كله مع ارتقاء الوعى عند الفرد والجماعة وحصول الناس على حقوق سياسية ، منها تكوين الجماعات والنقابات ثم الاحزاب والحكومات . . ومنها كسب المرأة لما يوصف بأنه جديد من الحقوق ، كان تجمع بين شئون الدار وكسب المعاش . . ويذكرون أيضا ما أستجد من الروابط بين الأفراد والجماعات على غير ما كان معهودا قبل هذه الثورات . . والجدل حول الملكية الفردية والجديد فى حجوم المشروعات وصورها والقيود التى أدخلها عليها الفكر .

هذه كلها مفردات قليلة من جملة القضايا التى يجمع الكتاب على أن بينها تماسكا يفرض على الدارسين أن يتبينوه ، لكى يروا الصلة بين القيمة المضافة إلى المواد بفضل العمل وبين مطالبة العمال بأن يكون لهم رأى ثم صوت فى الشئون العامة ثم تكون لهم مقاعد فى المجالس النيابة فالحكومات وحيث اجتمعت السلطات التشريعية والتنفيذية فى ظل فكر اقتصادى معين أو فلسفة بذاتها . . فإن امورا قد كانت تبدو من قبل ماسخة هبت عليها أعاصير التغيير . . كحرية اختيار العمل وحصانة الملكية الخاصة وحق الميراث . وكذلك يذكر الباحثون تلك الروابط المباشرة بين المنافسة على الأسواق من جهة وتطور الدبلوماسية الدولية وصور التعاون فى ناحية أو التكتل والخلاف والنزاع المسلح فى ناحية أخرى ومن ثم توجيه المزيد من الموارد والطاقات (التى كانت أصلا لرفاهية الانسان) إلى أبواب أخرى من التقدم التكنولوجى فى إنتاج وسائل التدمير .

ـ وكذلك يجمع الباحثون (الأماندر) على أن الدراسات الاقتصادية منقطعة الصلة

بالدين وهذا أمر يعنينا — هنا فى الشرق العربى خاصة وفى الأمة الاسلامية عامة — أن نشير إليه منسوبا إلى قائله . ويجمعون أيضاً على أن الحقيقة الاقتصادية غير قابلة للتحديد الدقيق ، فهى خيال محبب إلى كل باحث ، ولكنه لا يقدر على تقريبه إلى الدارسين . هذا ما يزعمه الباحثون فى الاقتصاد معزولا عن الدين ، ولكن .. نحن نقول : ما كانت الألفاظ لتنوء بحمل المعانى . ولكن النفوس هى التى تضيق بالحق ولا تطيقه .. حين يستقل العقل البشرى بوضع القواعد الآمرة للناس . من دون رب الناس نستغفر الله ، ولكن هكذا كانت البداية مع الثورة الفرنسية وما تلاها على توسع فى الرقعة التى هبت عليها الأعاصير .

إن الحقيقة الاقتصادية ليست من عالم ماوراء الطبيعة . إنها من هذا العالم الذى نعيش فيه . ويجب أن نكون على بينة من أنها تفر من المجتمع الانسانى كما حول التقرب منها... على حين أن المعادلات الرياضية والقوانين الطبيعية وخصائص الأشياء تزداد تحديداً واقتراباً من العقل البشرى ومن اليد الماهرة . ولذلك خيل للإنسان فى زمننا هذا أنه ساد الأرض واقترب من سيادة الفضاء . أما الحقيقة الاقتصادية التى فنيت فى سبيلها الأعمار خلال بضعة أجيال مضت . فلا يزال وصفها يتعثر على الشفاه .

نقول بأنها تحقيق لرفاهة الكثرة الغالبة من الناس بأقل التضحيات وبأنها التوازن الانسانى الذى لا يلتزم بميزان تجارى أو حسابى أو ميزان المدفوعات . ونقول بأنها الثمن العادل والأجر الذى يحفظ على الأجير كرامته كإنسان . وهى كفالة فرص العمل لكل قادر عليه راغب فيه . وهى رعاية المجتمع للاسرة إن هلك عائلها ، لأنه فى حياته قد أسهم فى تشييد البناء وتعبيد الطريق ، أو أسهم فى زيادة العمران بما أنتج من خدمة أو سلعة . وهى توفير الأمن على المال والعرض والولد وعلى جملة الحريات التى يستوى فيها كل العباد .

ولكن هل يستطيع الإنسان أن ينصف غيره من الناس ! ؟

هذا هو السؤال الذى تصدى له الباحثون أو نقول : هى هذه التجربة التى مرت بها الإنسانية مائتى عام وفاضت المكتبات بالملايين من الصفحات فى صور شتى من مقالات ومحاضرات وإحصاءات يجمعها الهواة . وبرامج لجماعة من المصلحين والساسة ودعاة الفتح وغصب موارد الآخرين . والخطب الإنتخابية وبرامج الأحزاب وسياسات الدول . وأخيراً المراجع العلمية ومناهج البحث فى الجامعات !!

وهذا الحشد كله . يسمى « علم الاقتصاد » إلى حد أن بعض المفكرين ضاق به ضيقا

شديداً . ومن ثم كانت ثورة الشرق على النظريات الغربية وكان إنكار الغرب للفكر الناهض له . ثم نجيء نحن فى هذه البيئة الغنية بتراثها ونتساءل كما يتساءلون : أين يبدأ هذا العلم وأين ينتهى ومتى يستقر ؟ .

وللإجابة عن هذه الفقرات الثلاث التى تتكامل فى سؤال واحد . نقول بأن الأمر يستقر حين نفصل العلم مع الفكر والرأى . إن للعلم خصائص تكفل له الثبات والنماء بإضافة قدر منه جديد إلى أصول معلومة من قبل . أما الفكر فقد يسير مع الهوى ومع السلطان ومع البغى ثم يزول . فيكون الفراغ (كما يقولون) ويملأ الفراغ جديد من الأهواء والآراء . ولذلك قلنا بأنها دراسات تتناول المدارس المشهورة وأفكارها وآراءها . ومايعرف بالعقائد والمذاهب والسياسات فى مائتى عام خلت . هى الأصل فيما تعانيه الإنسانية إلى يومنا هذا . أما الحقيقة الاقتصادية فقد زادت على هذه الجهود بعد وغموضا لأنها غرقت فى مواكب الزحام . زحام البشر الذى أراد أن يضع للأمور الإنسانية قواعد من عنده وأراد أن ينكر رسالة السماء .

الإسلام والايمان

عن عمر رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذا اطلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ « الأسلام أن تشهد أن إلا له إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : صدقت . قال فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال صدقت . قال فأخبرنى عن الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » قال فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال « أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » .

ثم قال لى : « أتدرى من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » . رواه مسلم .

الاقتصاد الاسلامى

مدخل ومنهاج

بقلم : دكتور عيسى عبده

(المقال الثانى)

الاقتصاد المعاصر

يحفظ الدارسون عن ظهر قلب .. إن المدارس التى تابعت وتركت لنا هذا القدر الهائل من الفكر والرأى . . هم التجاريون فالطبيعيون فأنصار الرأسمالية خصومها . . وخصومها هؤلاء يقال لهم « اشتراكيون » على التعميم وهم فرق .. بعضها مشهور وبعض آخر لا يستوقف النظر عند غير المتخصصين كالتعاونيين .. ذلك أن التعاون فى الفكر الاقتصادى .. قد بدأ فى صورة حركة مضادة لبعض الرأسمالية حين اتخذ البعض صوراً خاصة من التجارة ثم الصناعة .. وهكذا بدأ التعاون .

ومن الفرق الناهضة للرأسمالية أيضاً .. جماعات لا تدل أسماؤها على المبادىء لأول وهلة .. كدعاة الإصلاح .. فهؤلاء اشتراكيون بدورهم .

ومن المذاهب ما يتخذ اسماً له تاريخى يلقى ضوءاً كاشفا على إختيار اللفظ وعلى مصدر الفكر والرأى .. كالماركسية والشيوعية . . ولكن حتى هذه المذاهب الصريحة يطيب لها أن تدعى بأنها وحدها تعمل على نشر الاشتراكية وأن ما عداها هو جهد العقل أو هو مرحلة تؤدى إلى ما بعدها .

ولعرض هذه المادة فى إطارها العام . أساليب متفق عليها .. منها اتخاذ الأحداث التاريخية أساساً للتقدم من خطوة لأخرى .. ومنها اتخاذ الفكر أصلا والأحداث تبعاً ، ولكن الصواب هو اعتبار كل من الفكر والرأى ووقائع التاريخ مفردات تدور مع الزمن .. فبعضها يكون السبب أحياناً ويكون النتيجة أحياناً أخرى .. فارتقاء الوعى بين جماعات العمال ، مثلا ، قد كان سبباً فى حركاتهم وما وصلوا إليه من المركز المميز فى بعض

المجتمعات .. ومن هذا المركز بدأت حركات أخرى تلتها أحداث .. ولذلك يتعذر القول بان التقدم التكنولوجى كان سبباً فى زيادة الحقوق السياسية للأفراد ، أم أن هذا التقدم كان من نتائج التحرر والمساواة فى مجتمعات كانت ترسف فى العبودية ألف عام فى أدق التقديرات التى سجلها التاريخ . نقول بأنه يتعذر القطع بواحد من الرأيين .. وما بنا من حاجة إلى ترجيح قول على قول لأن النقاط الواقعة على دائرة (هكذا عجلة الزمان) تدور وتتبادل مراكز التقدم والتبعية مع الدوران وهذه من طبائع الأشياء .. إذن من الصواب أن نقول بتكامل الآراء والأحداث وتلاحقها فى ترابط دائرى .

ومن أساليب عرض المادة أيضاً .. اختيار الأشخاص الذين عاشوا زمناً وجمعتهم فكرة ومجموعة من الآراء .. ولهم فى حياتهم أنصار ولهم بعد ذلك تابعون .. كما كان لهم خصوم .

وأسلوب ثالث يقوم على التصنيف .. فيميز الفكر والرأى والنظام والسياسة والعقيدة والمذهب .. ويضع هذا كله فى موضعه المنفصل عن علم الاقتصاد إذ العلم لا يخضع «كالفكر» للآراء والأهواء وتتابع الأحداث وانما يتالف العلم من مفردات ثابتة تقوم بينها نسب وصلات ولا يملك الإنسان بكل ما أوتى من حيله أن ينال من هذه الأوضاع .. ونجد هذا واضحاً فى النظرة الاقتصادية التى تقوم على الحقائق المجردة عن الفكر والرأى .. كنظرية النقود مثلا وفعل التضخم فى مستويات الأسعار .. هذا من علم الاقتصاد .. وقد ينجح التدخل المقصود (استناداً إلى السلطة) فى تعطيل بعض الآثار أو إخفائها عن الأنظار أو تلطيفها زمناً ولكنها واقعة حتما إذا اجتمعت أسبابها وليس للانسان رأى فى هذا .

وإنما يطول الجدل أحياناً حين يغيب عن الباحث أن حياة المجتمع الانسانى وما تزخر به من ظاهرات معلنة أو خفية .. تخضع لقوانين ثابتة تفرض سلطانها ولو فى المدى الطويل .. ولا تختلف هذه القوانين عن نظائرها التى تحكم الجوامد والطاقات .. من حيث الثبات والترابط التام بين المقدمات والنتائج .

ومن أسلوب التصنيف أيضاً أن يدور البحث فى ميدان محدد بمعالمه الخاصة به .. كالبحث فى التجارة الخارجية وحدها أو السكان أو المصارف .. عبر مراحل التاريخ وفى ظل النظم والسياسات على ما بينها من تشابه أو افتراق .

وباختلاف أساليب العرض كان التكرار فى الأمر الواحد من زاوية وثانية وثالثة، وقد أتاح هذا التكرار فرصة الموازنة ومن ثم الوضوح .. ولكن الاسراف فى أى شىء يقلب الأوضاع، ولذلك يقال بأن الكثير من قضايا الفكر الاقتصادى لم يزد على وفرة العرض لا غموضا وبخاصة حين يتوسع الباحث ليربط الاقتصاد بجملة الدراسات الانسانية.

سنذكر هذا كله، إذن، بأبسط الأساليب وأكثرها أمنا .. سنعرض للأحداث والوقائع والأشخاص جميعاً فى تتابع زمنى مع أحكام الربط بين هذه المفردات على مراحل مميزة ولئن كان اختيار الثورتين الصناعية والفرنسية بداية للدراسات الاقتصادية على نهج علمى .. أمراً مسلما .. إلا أنه من المتفق عليه أيضاً أن مقدمات هامة قد وقعت قبل ذلك ببضعة قرون، وبخاصة تلك الكشوف الجغرافية التى توالت من القرن الخامس عشر وكانت لها آثار مباشرة على الفكر الاقتصادى عند الأفراد والجماعات .. وعند رجال الحكم والسياسة .. وهذا ما نعرض له بالإشارة البعيدة فيما يلى .. لمجرد التنبيه إلى ما قبل القرن الثامن عشر من أحداث لها صلة بالدراسات الاقتصادية من عهد آدم سميث فنقول : كان الدافع الأكبر لتنظيم التجارة إلى القرون الوسطى هو توفير الثراء لكل من الفرد والمجتمع .. وتركز مفهوم الثراء فى المعادن النفيسة لأنها مقبولة عند كل مجتمع فى المبادلات العادية ولأنها صالحة لدفع رواتب الجند وشراء أسرار الأعداء ورشوة القواد، وهكذا كان موضع التجارة ثانويا بالنسبة لموضع المعادن النفيسة .. ولكن كشف الأمريكتين وطريق رأس الرجاء الصالح فى ختام القرن الخامس عشر أعطى للتجارة وزناً لا عهد للناس به، فى غرب أوروبا وفى انجلترا بوجه خاص .

وهكذا بدأ الاهتمام بالتجارة كفرع مميز من فروع النشاط الاقتصادى .. يأخذ سمته نحو الصدارة ومن أجل التجارة وعلى أساس المصالح التى يمكن أن تحققها وضعت السياسات وأبرمت العهود والمواثيق وقامت الحروب وتحركت أفواج من البشر فى هجرات متلاحقة فى أكثر من اتجاه، كل ذلك سبيل الإثراء السريع عن طريق التجارة، إذ تبين بوضوح أن مضاعفة القيم بهذا الأسلوب وفى هذا العهد بالذات قد كان فريداً وغير مسبوق .

كان طبيعياً أن تمتد آثار هذه الأفكار الحديثة عندئذ إلى مراكز الإنتاج فخضعت السلعة فى مواصفاتها وفى كيانها إلى ما يمليه الطلب فى الأسواق الجديدة وبخاصة فى

أمريكا الشمالية والأجور بدورها .. وصعت فى إطار يحفظ على التجارة إزدهارها .. بل إن سلوك الفرد فى إنفاق دخله من العمل أو من غيره خضع للقواعد الآمرة التى كانت تجىء من السلطات على النحو الذى يكفل للتجارة استمرار الرواج .. وهكذا تكاثرت الأوامر والتوجيهات .. وتوافرت القواعد الحاكمة للنشاط الاقتصادى فى أكثر من مجال، بعد أن كان المجال الوحيد الذى يتسع لهذا النشاط الذهنى هو مجال المعادن النفيسة .

وبهذا التوسع فى دراسة سلوك الناس فى كل من الانتاج والاستهلاك بقصد تحقيق الثراء الكبير للأفراد والشعوب عن طريق التجارة، بدأت الدراسات العلمية المبكرة التى ميزت جماعات من الساسة والحكام والتجار . . ومن جملة هذه الآراء والقواعد الآمرة تألفت مادة الاقتصاد فى عهد التجاريين ، واتسع مجال التطبيق حتى شمل حياة الفرد والشعب وسياسة الدولة فى السلم والحرب ، كما امتد سلطان هذه المدرسة الهامة من مدارس الفكر الاقتصادى إلى الهجرات التى نشطت من بعد القرن الخامس عشر .. ثم بقيت قبضة التجاريين شديدة سبيا زهاء قرنين ونصف قرن .. أعنى من السادس عشر إلى أواسط الثامن عشر . . وكان للتراث الفكرى الذى عاش كل هذه المدة يلتزم بالخط الرئيسى لهذه المدرسة ، وهو يقضى بتحصين المصالح القومية عن طريق رواج التجارة وأن ترتب على ذلك تتابع الأوامر والنواحى الحاكمة لسلوك الأفراد وهم بسبيل الانتاج والاستهلاك ، وإن اقتضى ايضاً إسقاط حكومات وإزالة دول من الوجود .. على أن هذا التراث الفكرى لم يستمر خالصا كما بدأ ، وإنما ـ مع مرور الزمن ـ ظهرت اعتراضات من أتباع التجاريين أنفسهم .. لا بالتنكر للمذهب الذى عرفت به مدرستهم بل بالخلاف فيما بينهم على وسائل التنفيذ .. ومن أشهر مظاهر الخلاف .. قول بعضهم إن الهدف الأخير من ازدهار التجارة ونجاحها لا يصطدم بالمعيار القديم للثراء وهو توفير المزيد من كميات المعدن النفيس داخل حدود الاقليم ، ورتبوا على ذلك أمراً كان له ما بعده .. فقالوا بأن التخفيف من القيود التى أرهقت الأفراد وبخاصة التجار بشأن استيراد المعدن النفيس وتصديره ، من شانه أن يحفزهم على مضاعفة الجهد لتحقيق الربح الخاص ، ومن ثم يكون الفائض من المتاجرة بالمعدن النفيس (فى ظل شىء من حرية التصرف) أكبر منه فى حالة الالتزام بالقيود .. ومن هذه البداية المحدودة كانت البادرة الأولى لفكرة التحرر النسبى فى النشاط الاقتصادى ، وقيل عندئذ بأن المرجع فى هذا هو طبائع الأشياء ثم غلبت فكرة « الطبيعة » كرمز للقوى التى يعيش الانسان بها كما يعيش بفيض من مواردها وطاقاتها .

غلبت هذه الفكرة على فريق من الخاصة ، فى اواسط القرن الثامن عشر فاقاموا منها مبدأ يدعون إليه أو مذهبا يميزهم من غيرهم فكانت مدرسة الطبيعيين .

ولقد عاشت هذه المدرسة فى القمة زهاء عشرة أعوام وحسب .. ومع ذلك .. يعود الكتاب (حتى فى أيامنا هذه من القرن العشرين) إلى دراسة الدقائق من حول هذا الفريق الذى لم يلبث طويلا على مسرح الأحداث والفكر جميعاً ، وهكذا كانت نشأة الاقتصاد المعاصر بين عهد التجاريين وظهور الطبيعيين ، وكان لهذه المدرسة الأخيرة آثار جديرة بمزيد من البيان فى البحث التالى .

الهوى ... والأمل ...

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ « إن أخوف ما أتخوف على أمتى الهوى وطول الأمل . فأما الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسى الآخرة وهذه الدنيا مرتحلة ذاهبة . وهذه الآخرة مرتحلة قادمة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فإن استطعتم أن لاتكونوا من بنى الدنيا فافعلوا ، فإنكم اليوم فى دار العمل ولا حساب وأنتم غدا فى دار الآخرة ولا عمل » .

رواه البيهقى فى شعب الايمان

الاقتصاد الإسلامى
مدخل ومنهاج

بقلم: الأستاذ الدكتور عيسى عبده

الحلقة الثالثة:

فى دراسة المادة الاقتصادية ، بأوسع ماتدل عليه هذه العبارة: يرى الباحث أن مدارس الفكر الاقتصادى ، وبعض رجال هذه المدارس ، يحتل مراكز بالغة الأهمية فى الأدوار التى مرت بها فروع هذه المادة .. من عصر الأغريق . إلى يومنا هذا .. ولكن فى مائتى عام مضت .. من عهد الثورة الفرنسية إلى الآن .. كانت هذه الظاهرة شديدة الوضوح ، إلى حد أن مدارس القرنين الأخيرين ورجال هذه الحقبة من الزمن .. لا يزالون جميعاً يلقون بظلهم على سير الدراسات الاقتصادية وتطبيقاتها .. ومن أشهر الأمثلة : مدرسة الطبيعيين .. التى اخترناها لهذه الحلقة .. فنقول :

مدرسة الطبيعيين

حين نقصد بالطبيعيين تلك المدرسة المعلومة فى تاريخ المذاهب الاقتصادية، والتى ظهرت فى فترة قصيرة فى أواخر العهد الذى سادت فيه آراء التجاريين .. فإن القول ينصرف عندئذ إلى جماعة محدودة من خاصة الفرنسيين .. علا صوتهم فى محافل باريس ، بوجه خاص فى أواسط القرن الثامن عشر ، وتألفت هذه الجماعة من بعض كبار الساسة والفلاسفة ، أما قيادتهم فقد كانت للطبيب الخاص للملك لويس الخامس عشر .. وكان هذا الطبيب على جانب كبير من العلم والفضل ، واسمه « كيزناى » ومنهم من يسقط حرف الزاى عند النطق .

فيقول « كيناى » وكان أيضاً الطبيب الخاص لامرأة مشهورة فى التاريخ الزمنى قبيل الثورة وهى مدام « دى بومبادور » . ولد كيزناى عام ١٦٩٤ وتوفى عام ١٧٧٤ قبل ظهور كتاب آدم سميث « ثروة الأمم » بعامين اثنين ولهذه الإشارة دلالة خاصة (فى تقدير شارل ريست) ومن ذلك قوله : لولا وفاة كيناى الاقتصادى الفرنسى قبل ظهور كتاب ثروة الأمم .. لكان الإهداء إليه .. وهذا مقبول .. ويؤيده كول « مارشال » أن « سميث » أفاد كثيراً من الفرنسيين الذين عاصروه وبخاصة « الطبيعيين » .. ويلاحظ على هذه الجماعة أو المدرسة أنها كانت متماسكة متضامنة فظهرت مؤلفاتهم تباعا وهى تؤيد فلسفة واحدة لم يحيدوا عنها كما أنهم كانوا حريصين على تثبيت المفهومات التى يدعون إلى قبولها ونشرها .. دون الاهتمام بأشخاصهم .. بل بالتركيز على « الطبيعة » وقد ظهر من آرائهم المذكورة فى المتن مقدمات مبكرة (من قبل ظهور المدرسة التى تزعمها) « كيناى » ومن أشهر السباقين إلى النشر فى بعض نواحى الاقتصاد نروجو (١٧٢٧ - ١٧٨١) كتب عن النقود الورقية عام ١٧٤٨ وكانت سنه عندئذ إحدى وعشرين سنة .. ولكن بحثه الهام الذى لفت إليه الأنظار ظهر عام ١٧٦٦ وكان عنوانه « نظرات فى تكوين الثروات وتوزيعها » .

ولئن كانت الفترة التى غلبت فيها آراء الطبيعيين خالصة لا تكاد تزيد على عشر أعوام (قبيل ظهور آدم سميث) إلا أن الفلسفة التى تأثروا بها والقواعد التى قرروها كانت معروفة (ولو بمقدار) من قبل ظهورهم كما أن آثارهم المباشرة على الدراسات الاقتصادية (جملة) قد كانت يسيرة . أما آثارهم غير المباشر فقد امتدت من بعدهم طويلا .. بحيث أن فريقا من المعاصرين يعودون إلى أصول ما كتبه الطبيعيون (ما نشر منه وما لم ينشر) ويعمقون النظر إلى كل ما ذهبوا إليه .. ومن أحدث المراجع كتاب جمع الكثير مما لم يكن منشوراً من قبل وعكف أصحابه على التحليل والموازنة فى بحث طويل ينتهى إلى القول بأن الطبيعيين وإن سبقوا فى بعض ما قالوا به أو تشابهت أقوالهم بأقوال الآخرين ، إلا أن مادة البحث تريد أن تقرر بأن لهذه المدرسة فلسفة خاصة قائمة بذاتها واسمها « فيزيوكراسى » بمعنى « التزام الطبيعة واعتبار هذا الالتزام نهجا شاملا للنشاط الانسانى » .

جدير بالذكر هنا أن كل مدرسة اقتصادية قد تأثرت بالعصر الذى عاشت فيه .. هكذا كانت الحال مع التجاريين الذين عاشوا زمن الكشوف الجغرافية وتوافر فرص

المضاعفة من القيم بالمتاجرة .. وهكذا كانت الحال من قبل التجاريين حين كانت بقايا العصور الأولى لا تزال تصبغ العقل البشرى بصبغة الجاهلية الأولى، ومن ملامحها رفع الذهب فوق المعادن إلى مرتبة خاصة فقد كان معدن الآلهة وكان الوضع الأليق به أقبية المعابد .. وبتعاقب الأجيال، تراجع المعدن النفيس نوعا ما، كما ارتخت قبضة التجاريين تحت ضغوط الفكر المتحرر نوعا (للطبيعيين) .. وتوافرت الفرصة لظهور هذه المدرسة بدورها ولها بيئة تأثرت بها وأثرت فيها .. كما كانت الحال لسابقتها من المدارس، وهذا ما نعرض له حالا ولكن سنذكر دائماً أن نشأة كل واحدة من المدارس الاقتصادية لم تكن لتقضى على آثار ما سبق .. بل تواكبت المدارس تباعا وكل منها ترك على الطريق أثراً باقياً ومن ثم كانت الوفرة فى الفكر الاقتصادى تزاحماً .. من غير شك .. أما أن يكون تقدما فهذا قول فيه نظر !!

نعود إلى سياق الحديث عن الطبيعيين بدورهم لنصف الجو الذى عاش فيه هؤلاء الخاصة من رجال السياسة والحكمة ومن رجال الفكر والرأى .. ونريد بالجو الذى عاش فيه الطبيعيون الأوساط الاجتماعية والزمان والمكان . وقد عرفنا أن الزمان حول العهد الذى حكم فيه لويس الخامس عشر (أى أواسط القرن الثامن عشر) والمكان باريس .. وبقى أن نعرف شيئاً عن المجتمع الذى خالطه الطبيعيون ومنه بلاط الملك وما يليه من طبقات قليلة العدد وفيرة الثراء كثيرة البذخ شديدة الفساد .. ولا صلة لهذه الجماعات القافلة عن حقيقة الحياة بشىء اسمه الانتاج .. ومن دون هذه القلة الغارقة فى متاع محرم ولهو آثم .. مستويات من المجتمع .. ولدت فى شقاء مذل .. وحملت من الجهد ما يقصم ظهور الحيوان. ثم حرمت من أسباب التماسك مالا يمتنع على بهيمة الأنعام .. وفرض عليها أن تنسج من هذا كله حاضرها ومستقبل الأجيال من أبنائها ومن أحفادها .. حتى لا يحرم السادة من مجتمع البلاط والأثرياء جموعاً ترضخ لوقع السياط على الظهور جيلا بعد جيل .

رأى الطبيعيون هذه الفوضى وعزوها إلى المدنية الزائفة التى صنعها الإنسان فباعدت بينه وبين جمال الطبيعة وما حوته من ضياء لا يغنى عنه بريق كاذب .. ثم وازنوا بين جملة الخصال التى اجتمعت لهذه المدنية السطحية .. وبين الملامح الثابتة للحياة الطبيعية .. وهالهم إن لم يكن للجديد فى بلاط الملك وحياة المترفين .. ما يسد الفراغ فى حياة المجتمع وقد اعتزل الطبيعة .. ورأوا بوضوح كيف يفقد الانسان كل ما يكون به إنسانا وعلى الأخص : الفضيلة والعدل والمؤاخاة وطهارة الأعراض وصحة الانساب وتماسك الدرجات المتكاملة للمجتمع الواحد مع الحرص على شرف المعاملات فى حدود البلاد وفى العلاقات الخارجية .. هذا كله .. قد زال فإن بقيت فضلة منه .. فهى فى مهب الريح .

٤ ـ الإقتصاد الاسلامى

مدخل ومنهاج

بقلم الأستاذ الدكتور عيسى عبده
أستاذ الاقتصاد بالجامعة

ليس عجيباً بعدهذه الاشارة الخاطفة أن نرى خاصة الفرنسيين من حول الملك ومن رواد الصالونات المترعة بألوان المتاع الذى لا يعرف حدا من العرف ولا من القانون (ولندع ذكر الذين جانبا تنزيها له عن مواطن السوء) وقد انطوت نفوسهم على إكبار للهنود الحمر ، مثلا أصحاب أمريكا الأصليين .. ومن جرى فى حياته على شاكلتهم من حيث البساطة والقربى إلى الطبيعة وهى الأصل . . وإليها تعود أسباب المتاع كما تعود الأبدان جميعاً .

وكان من جماعة الطبعيين رجال قانون (من المحامين بوجه خاص) وكان إدراكهم للحق مستنداً إلى مصادر قديمة كفلسفة الأغريق وشرائع الرومان، ورأى هولاء أن للحق قدسية لاتستمد من هذه الأوضاع المنهارة وإنما تستمد من جملة الأوضاع الثابتة للطبيعة بما فى ذلك مايكون بين الأشياء وبين أفراد الناس من علاقات هى فى جوهرها كالقواعد الآمرة التى لايترتب على عصيانها مجرد الجزاء ، وإنما يترتب على جهلها أو تحديها عن قصد ضياع المجتمعات .. وهكذا تضافرت جهود العلماء من هذه الجماعة الخاصة على القول بأن الطبيعة المصدر الوحيد للثروة والنماذج التى تتخذ فى كل نشاط إنسانى يراد له البقاء .

اطمأنت جماعة الطبيب الفرنسى « كيزناى » إلى هذه النزعة القوية نحو الطبيعة وأقاموا فلسفتهم ، ومن ثم ملامح مذهبهم على أمور أهمها :

قالوا بأن الزراعة هى الصورة الخالدة الصافية لما يمكن الانسان أن يستمده من الثروة بالمعنى الاقتصادى ، ومن ثم رفعوا الزراعة فوق غيرها من صور السعى لكسب المعاش .

وقالوا بأن حياة الريف بما فيها من بساطة وهدوء هى الحياة الأفضل على الرغم مما يبدو على هذه الجماعة الآخذة بأسباب الفضيلة ، من زهد نسبى فى متاع الحياة الدنيا ، فإن الكتاب الثقات يقولون بأن الاقتصاد الحديث تأثر بكتابات الطبيعيين فى كل من أسلوب البحث والهدف منه. فمن الأسلوب يقال بحق إن الطبعيين عرفوا بدقة المتكلمين والمناطقة. .

وكان لحرصهم هذا على الالتزام بالمنهج العلمى الدقيق فى تحليل المسائل المطروحة على بساط البحث وسلامة الترابط بين المفردات واستخلاص النتائج كان لحرصهم هذا مع الثبات عليه فى معظم كتاباتهم آثار كبيرة على أساليب البحث التى اتخذها من جاء بعدهم من الكتاب الذى عرضوا المادة « الاقتصاد » .

وأما الهدف الذى شغلهم تحقيقه، فقد أكسبهم احترام الأجيال من عهدهم إلى يومنا هذا . . ذلك أن هدفهم هذا لا يذكر لمجرد القول بأن غيرهم قد تابعهم فيه بل يذكر لما فيه من تشريف لتاريخ الدراسات الاقتصادية كلها . . ذلك أنه قبل كيزناى وجماعته ما كانت تلك الدراسات تثير فى النفس السوية أى احترام بل كانت تتراوح بين تثبيت الظلم وتغليب النهر فوق الحق وإشاعة الفساد . . فإن كان بين الأهداف ما هو أقل بعداً عن الإنسانية . . فهو الملق والرياء ، أو التقرب إلى السلطان . . كأنما كانت هذه القربى غاية الغايات من الدراسات ! !

وعلى هذا الذى أوجزناه فى كلمات . . إجماع . . فقد كان الهدف الأول من البحث فى الاقتصاد السياسى هو توفير فائض من المعدن النفيس لتمكين الملك من دفع رواتب الجند ورشوة قواد الأعداء (كما ذكرنا من قبل) . . وكان من الاهداف أيضاً إثارة الطريق أمام التجارة لتحقيق أضعاف مضاعفة من الثروات . . وملء خزانة الملك مع خزائن المقربين . . وإلى هنا وصل اجتهاد الرواد الأوائل . . قبل « كيزناى » أو ذلك مبلغهم من العلم ! !

فلما عكف الطبيعيون على التقعيد لمذهبهم كان هدفهم (لأول مرة فى تاريخ الاقتصاد الوضعى) توجيه الدراسات الاقتصادية إلى الكشف عن الوسائل الفعالة التى تقدر على التخفيف من آثار الحرمان أو الفقر المهدر لكرامة الآدمى .

ومن هذا التحول المبكر — فى عهد الطبيعيين — نحو هدف إنسانى . . اصطبغت الدراسات الاقتصادية بصبغة تؤهلها للدخول فى ميادين الدراسات الإنسانية ، وعلى هذا النهج سار الكتاب حتى أصبح الهدف الأول فى الدراسات الحديثة والمعاصرة هو ما فكر فيه الطبيعيون .. وإن زاد على تتابع الجهود صقلا وتهذيباً . . فيقولون مثلا . . بأن الهدف « هو تحقيق حياة أفضل لجملة الناس » أو يقولون « هو رفع مستوى الرفاهة وتوفير مزيد الأمن » .. وسنصرف النظر إلى هنا عن بعد ما بين الأقوال والأعمال ولكن هكذا يقرر الكتاب وبهذا ينادى قادة الفكر الاقتصادى من بعد « كيزناى » ومدرسته ولكى نستبين مدى الجرأة والصلابة متى تميزت بها هذه الجماعة من العلماء نلاحظ أن أحداً من

قبلهم (فيما بين القرن الخامس عشر والثامن عشر) لم يحاول فى صراحة أن يقول بان الدراسة العلمية المنهجية . . إنما تهدف إلى الانصاف وتخفيف الشقاء عن الكادحين ، فقد كانت أقوال كهذه تعتبر عظة لا مرحباً بها ولا بمصدرها ، كما تعتبر إثارة للشغب ومن ثم تكون سبباً للمساءلة أمام القانون وما يؤيده من تعذيب ومن سجون إن صح أن يكون هذا هو القانون ! !

وسنلمس الأثر الكبير للطبيعيين حين نرى سلوك غيرهم من قبلهم ، من العلماء دائماً فقد كتب (فوبان) مثلا قبل عهدهم بنحو ستين سنة (أى فى سنة ١٧١٧) ، وظهرت فى كتاباته علامات الاهتمام بشئون الناس كافة : والدرجات الكادحة والفقيرة خاصة . . ولم يسعه إلا أن يبرر هذا المسلك غير المألوف من عالم رزين ، سجل التاريخ اعتذاره الذى ساغه فى عبارة تناقلتها الأجيال .. قال مبرراً عنايته بشئون الضعفاء ، « إذا ابتأس الشعب افتقر الملك » ، ومن ثم يكون اهتمامه بصلاح حال الكثرة إنما يراد به تحقيق المزيد من الثراء والرفاهة لمن فى رعايته ! !

ولقد ذهب الدارسون فى تقدير مثل هـذه الأقوال المنسوبة إلى فوبان مذاهب شتى لا تخلو من الاجتهاد . . ومن ثم ظهر الخلاف بين كاتب وآخر عند تحديد العلامات الكبرى على طريق الفكر الاقتصادى . . وعند تقدير الوزن الصحيح لكل مدرسة وحساب ما لها وما عليها .

(يتبع)

الشرك

« الشرك » أن يتعبد القلب لغير الله : خوفاً ورجاء ، ورغبة ورهبة ، وذلا وخشية وإجلالا وتعظيما وحباً ، فتندفع الجوارح مستسلمة ومنفذة لسلطان هذا التعبد القلبي: دعاء واستعانة واستغاثة ، وفزعاً ولجأ ، وطلبا ومسئلة ، وضراعة واستكانة ، ونذراً وحلفا وذكراً وسعياً وبذلا للنفس والمال فى مرضاة الشريك أو الشركاء . ومنشأ الشرك : من الجهل بالله وأسمائه وصفاته وآياته ، ومن الجهل بالشريك نفسه . فالشرك بالله ثمرة لازمة للجهل بالله ولابد ، ولذلك سمى الله المشركين الأولين : أهل الجاهلية ، فإن الإنسان لو عرف ربه بأسمائه وصفاته ، ونعمه وسننه وآياته ، معرفة صحيحة تكون ثمرة التفكر فى خلق نفسه وخلق السموات والأرض ، والتدبر لآيات وحيه ، فإن هذه المعرفة تملك عليه قلبه ، وتدفعه إلى الإيمان الصادق بأن الله ربه وفاطره ورازقه: هو الذى تنبغى له الإلهية وحده ، ولا يليق بالقلب أن يتعبد إلا له .

الاقتصاد الاسلامى

مدخل ومنهاج ..

بقلم الأستاذ

الدكتور عيسى عبده

الحلقة الرابعة :

« آدم سميث » علم فى تاريخ الاقتصاد .. ولعل هذا « العلم » بفتح العين واللام .. قد شغل الدارسين للمادة الاقتصادية أكثر مما ينبغى .. ولكنه مع ذلك يحتل مركز الصدارة بين الأعلام كلها .. ولا ينازعه إلا القليل .. من أمثال « كارل ماركس » وكل راغب فى الدخول إلى دراسة الاقتصاد الإسلامى يحتاج فى المراحل التمهيدية من دراسته .. إلى شىء من الإحاطة بالعلامات الكبرى على طريق هذه الدراسات .. سواء كانت هذه العلامات تحدد مراحل التقدم أم كانت دليلا على العثرات .. وكذلك يحتاج الدارس الجاد إلى العلم بشىء من الوقائع التى أحاطت بظهور « زيد » و« عمرو » من الأعلام .. وما كان لهذا وذاك من أثر فى القدر المختزن من المعرفة بشئون الاقتصاد .. ونحن وإن كنا نرى أن هذا المختزن يضم الكثير من الفضول المعاد والجدل السقيم .. إلا أن إطراحه جملة لا يصح وبقى على الكاتب أن يأخذ من زحام الفكر الاقتصادى وأحداثه وأعلامه .. بعض النماذج .. وسيرى القارىء أن مادة هذه الحلقة لا تخلو من فائدة لكل مهتم بدراسة الاقتصاد ..

° ° °

آدم سميث

يقول المحدثون من علماء الاقتصاد فى المعسكر الغربى بأن المحاولة الأولى لإرساء

الاقتصاد على أسس منهجية صحيحة رتيبة ، قد كانت لمدرسة الطبيعيين ثم جاءت خطوة كبيرة فى أعقاب هذه المدرسة ، وكانت لعلم فرد لا لمدرسة تتألف من العديد من العلماء والكثير المتكامل من الثقافات أما هذا العلم الفرد فى قولهم فهو آدم سميث .

يقول الأستاذ مارشال بأن آدم سميث لم يكن الاقتصادى الوحيد فى العصر الذى عاش فيه وإنما كان يفوق من سبقه ومن عاصره بقدرات طبيعية صقلتها التجارب المكتسبة بالاطلاع وبكثرة الأسفار .

وقبل ان نتابع الكلام عن هذا العلم فى تاريخ الدراسات الاقتصادية نشير إلى عبارة أخرى حرص « مارشال » على إبرازها بحكم الأمانة العلمية .

قال « مارشال » بأنه يسلم بأن هذا الاقتصادى البريطانى العظيم قد قد افترض أو استعار الكثير من أعمال غيره من مواطنيه ومن الفرنسيين ، ثم سلم « مارشال » أيضاً بأن الفكر البريطانى والفرنسى قد تأثرا أو أفادا من دراسات قام بها علماء من هولندا بدورها .

ونحن « فى بحثنا هذا » نتابع عرض الخطوط الرئيسية لهذه الدراسات كما هى مذاعة ومشهورة ولذلك لا نقف طويلا عند بعض الأمور التى تدعوا إلى مراجعة هذا المذاع بل نكتفى بالإشارة إلى حرص كتاب الاقتصاد على تقصى المصادر التى عنها أخذ الكاتب أو استعار سواء أكان فعله هذا معلناً بقلمه أم كانت الأخرى . وقاضت المراجع بالعديد من الأسئلة وإلى هنا لا وجه للمساءلة ولا للاعتراض ولكن طائفة من الحقائق لا يذاع بل يقابل بالسكوت ومن ذلك مثلا أن آدم سميث معروف بعدد من الاضافات التى جاء بها فى دراساته للثروة والدخل وجملة المادة الاقتصادية ومن أشهر ما عرف به تلك القواعد التى أرست التقنين الضريبى على أسس من العدالة تتفق مع الحقيقة الاقتصادية أو تقترب منها . وتعرف هذه القواعد باتها « قوانين آدم سميث الضرائب » وهى ركن من أركان المالية العامة (فيما بعد) أو اقتصاديات الحكومة قبل فصل المالية عن الاقتصاد كما كانت الحال لعهد آدم سمث وإلى أوائل القرن التاسع عشر .

وأنه ليطيب للباحث العربى ما يطيب لغيره ، من الإشادة بفضل الرواد فى كل فرع من فروع المعرفة ولكنه من الانصاف أن نقول .. ومن الأمانة العلمية التى يزعمون .. أن نقرر : بأن هذه القوانين الاربعة التى تنسب إلى يومنا هذا لآدم سمث هى فى الحقيقة للقاضى « أبو يوسف » فى كتابه المعروف « الخراج » وقد عاش الفقيه العربى قبل الكاتب البريطانى بتسعمائة عام .. وما هذا الذى نعترض به سياق الكلام إلا مجرد تنبيه إلى

الرجوع إلى تاريخ العلم الانسانى ـ بوجه خاص ـ بمزيد من التحقيق والتصحيح !!

وبعد فالمشهور أن آدم سميث عند الغربيين هو المؤسس الاول للاقتصاد السياسى بعد أن أرسى الطبيعيون قواعده الاولى وارتفعوا بالهدف منه والتزموا فى دراستهم بمنهج علمى مقبول .. وقليل من علماء الغرب من يجادل فى إسناد هذا المركز المميز إلى آدم سميث .. ومن هؤلاء « جيفونز » الذى يرى أن الفرنسى « كانتيون » هو الاحق بالصدارة .. بفضل سبقه إلى إصدار مؤلفه القيم عن التجارة ١٧٥٥ (أى قبل أن يصدر آدم سميث كتابه عن ثروة الامم بنحو عشرين عاماً) .

وعلى الرغم من هذه المحاورات العلمية المستندة إلى حقائق ثابتة .. بقى المذاع المشهور الذى قدمناه من صدارة لآدم سمث .. ولهذه الصدارة ظروف تاريخية ومقومات علمية نشير إلى كل منهما بإيجاز .. وذلك فيما يلى :

أقام آدم سمث طويلا بفرنسا .. واتصل بمدرسة الطبيعيين ودخل مع رجالها فى مناظرات واطلع على الفلسفة فى عصره .. ما كان منها لفرنسيين وما كان منها للانجليز .. وأحاط بما ظهر فى حياته من إضافات قيمة للدراسات الاقتصادية التى أسسها كل من « هيوم » و « ستيوارت » كما أفاد كثيراً بما نشره « أندرسون » و « يونج » من دراسات علمية لبعض الحقائق الاقتصادية وأضاف إلى هذا الاطلاع نشاطاً فى الترحال الكثير مع توثيق الروابط برجال الاعمال الاسكوتلانديين .

ثم أن الطبيعة حبته بقدرات غير عادية على الملاحظة والحكم الصحيح على الظاهرات ويرى المؤرخون لاعلام الاقتصاد السياسى أنه أحاط بكثير مما عرفه معاصروه وإنما كان أقدر منهم على عرض مادته حتى وصل فى أواخر أيامه إلى جمع أطراف المادة الاقتصادية .. ثم إنه كتب أول دراسة شاملة لثروة الأمم بتكوينها المادى وبما يتصل بها من اعتبارات اجتماعية .

الاقتصاد الاسلامى
مدخل ومنهاج

بقلم الأستاذ الدكتور عيسى عبده

الحلقة الرابعة :

ولهذا للمؤلف قيمته من غير شك .. وإن كان محاولة لوصف الدخل والايراد القومى وما كان من الميسور فى زمن ادم سميث أن يتعرض كاتب أو عالم أو باحث لثروة الأمم بمفهومها المعاصر . . على أن « آدم سميث » أضاف شيئا إلى جملة المسلمات فى هذه الدراسة . ومن ذلك أنه اتخذ منهجاً علميا للبحث فى القيمة وصلتها بالحوافز الانسانية فى موازنات لاينقصها منطق ولا وضوح . . فهو يزن الحافز إلى اقتناء الشىء فى مقابل التضحيات التى لابد منها لإنتاج هذا الشىء (أو ما يعرف بتكلفة الانتاج) ويصف الدور الذى تؤديه بالتكلفة فى تحويل هذا بالحوافز واتخاذ الفرد سلوكا ظاهريا يدخل فى مجال هذه الدراسة . . كان يقبل المستهلك على الشراء وكان يقبل المنتج على الانتاج .

وقد يقال بحق إن هذا الذى ينسب إلى آدم سميث قد سبقه إليه غيره . ومنهم الطبيعيون وهاريس وكانتيون ولوك . . هذا صحيح .. ولكن الوضوح الذى عرض به « آدم سميث » ماوصل إليه من نتائج . . جعل هذه الجزئيه الهامة فى دراسة القيمة من مآثره على الاقتصاد .

وفى واحد آخر من الميادين التى ارتادها الطبيعيون . . جاء آدم سميث ليزيد الأمر وضوحا وهو ميدان تكرر البحث فيه وتفاقم الخلاف .. وهو ميدان البحث فى جدوى تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى .

بدأ الطبيعيون بالتحامل على وفرة القيود التى ورثها المجتمع عن التجاريين وبهذا مهدوا لحرية النشاط الاقتصادى وحذروا من تدخل الحكومة إلا بمقدار وجاء آدم سميث ليقرر بأن الحكومة تسىء إلى المجتمع بالتدخل فى التجارة ويلاحظ أنه إلى هذا الوقت الذى عاش فيه آدم سميث (أواخر القرن الثامن عشر) كانت التجارة هى الرمز الذى لا يخطىء للنشاط الاقتصادى الكبير (مع التحفظ بشأن الزراعة فى نظر الطبيعيين) إذن حين

يقول آدم سميث بأن الحكومة تضر بالاقتصاد بالتدخل فى التجارة فقد تابع الطبيعيين فيما أثاروه من نزعة إلى حرية النشاط بفروعه وزاد آدم سميث هذا الامر تفصيلا حين قال بان الفرد قد يطمع وقد يظلم المجتمع بما يذهب إليه من المبالغة فى تحقيق المصلحة الخاصة ولكن الحكومة (فى تقدير آدم سميث) وإن اجتمعت لها أسباب الإخلاص وحسن النوية لا تستطيع أن تخدم المجتمع بتدخلها فى النشاط الاقتصادى إلا عند مستويات أدنى من نظارها فى ظل حرية الفرد مهما تدلى هذا الفرد فى المادية . . عرف هذا القول عن آدم سميث وعنيت به المدرسة الألمانية فيما بعد إلى حد أن هذه الموازنة بالذات قد أصبحت عند الإمام ملمحا خاصا يميز آدم سميث عن غيره من مؤسسى الاقتصاد الحديث .

ومرة أخرى نقول بأن ما نادى به آدم سميث وزاد قضية التدخل فى النشاط الاقتصادى عمقا وتعقيدا مرة أخرى نقول بأن الأمر عندنا مستقر وغير قابل للجدل عنه فوم يوقنون ففى تراثنا نصوص ، وفى المتون والشروح كنوز . ومن ذلك ما كتبه (ابن خلدون) قبل آدم سميث بأربعمائة عام ، وفى المقدمة حين قال « فصل فى أن تدخل السلطان فى التجارة مفسدة للارزاق مضرة بالجباية » والفرق بين ماسبق إليه العالم المسلم وبين أقوال غيره من كتاب الاقتصاد الوضعى هو أن ابن خلدون يستقى من مصادر لا تتحول (هى الكتاب والسنة) وكذلك كانت الحال مع فقهاء المسلمين الذين سبقوا ابن خلدون ومحل النظر هنا أن الاستقرار عامل جوهرى فى تحقيق العدالة والأمن ولكنه لا يزال بعيد المنال فى كل مجتمع يفصل بين الدين والنشاط الاقتصادى

وبجهود آدم سميث اتسعت آفاق الدراسات الاقتصادية وتشعبت بحيث أنه من العسير أن يتصور الباحث قدرة فرد واحد على أن يحيط بكل ما أراد أن يحيط به فكان يلمح الأمر ثم يهمله أو ينساه . . فى تقدير المؤرخين من بعده أنه أثار أموراً ربما لم يكن فى وسعه أن يقدر مداها وربما كانت لعهده سابقة لأوانها كدور النقود فى جملة الدراسات الاقتصادية .

ولئن كان بعض الذى قال به آدم سميث لا يعتبر اختراعا من عنده ولا كشفا بل يعتبر مما يدركه المواطن العادى بالفطرة السليمة إلا أنه مع ذلك وضع الأسس القادرة على أن ترفع من بعده صروحا ضخمة توالت وهى المدارس الأقرب إلى مفهوم العلم وضوابطه .

نحو اقتصاد إسلامي

- ٥ -

نمو المادة الاقتصادية

بقلم : الدكتور عيسى عبده

نحن ندعو إلى أخذ أصول الاقتصاد من كتاب الله والسنة .. ونقول بأن علوم الدين محدومة غير خادمة ..

ولذلك كانت الإحاطة بما يقول به غير المسلمين شرطاً لازماً لإمكان الحكم على ماوصل إليه الباحثون بمحض الاجتهاد .. وبعد ذلك يمكن الاقتراب من دراسة العلوم الإنسانية . كما في الكتاب والسنة .. ومن هذه العلوم « الاقتصاد » .. وللوقوف على مازدحت به مكتبة الاقتصاد السياسي .. تتابع نشر هذه الكلمات :

كانت جهود آدم سميث وآثاره العلمية علامة كبرى على طريق الدراسات الاقتصادية المنهجية ـ وهذا قدر متفق عليه ـ بحيث أنه يجمل بنا أن نتوقف برهة قصيرة لنتأمل الفترة الزمنية المحددة التي نطل عليها ، وهي بمكانها المعروف لنا من أحداث التاريخ القريب تاريخ مائتي عام مضت ...

وإذا كان كتاب « ثروة الأمم » لآدم سميث قد صدر في سنة ١٧٧٦ ، أي في العقد الثامن من القرن الثامن عشر فإن الربع الأخير من ذلك القرن قد شهد جهوداً بذلها رجال عاصروا آدم سميث واتصلوا به (كما اتصل هو بالطبيعيين) وشهدت هذه الفترة أيضاً رجالا جاءوا من بعد آدم سميث وتأثروا به .. وهنا يصعب على الباحث أن يضع الفواصل الدقيقة بين جماعة وأخرى ففي هذه الفترة بالذات وما تلاها مباشرة (أعني في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر) ظهرت مدارس لامدرسة واحدة وغلبت عليها نزعتان : النزعة التقليدية والنزعة التاريخية .

والمقصود بقولنا « النزعة التقليدية » أو « كلاسيكس » هو التمسك بالقديم أو السابق إلى مدى يختلف عند كاتب وآخر . وقد تطلق الكلمة ذاتها على أصحاب هذه النزعة ومن جملتهم تتألف الجماعة التي يقال لها « المدرسة التقليدية » .

وأما المدرسة التاريخية فهي جماعة من الباحثين هالها جسامة التفاوت بين الفروض التي

وضعها التقليديون وبين الواقع الذى كشف عنه التاريخ بتتابع احداثه ومن ثم فهم يميلون إلى اتخاذ التاريخ حكما عادلا على قيمة الآراء التى قال بها رواد الاقتصاد

وفى موكب الأحداث التى صاحبت هذه الدراسات جميعاً .. وقائع كبيرة الأثر فى مجرى الحياة بالغرب الأوروبى ثم بالعالم . وهى الوقائع التى مهدت للثورة الفرنسية حتى اندلع لهيبها فى ١٧٨٩/٧/١٤ . وكانت لها آثار بعيدة المدى على نظم الحكم وحقوق الإنسان ونظرته إلى الثروة وغيرها من أسباب تسلط الفرد والطبقة على الجموع الفقيرة من الناس . وبخاصة الكادحين فى طلب القوت .

إذن فى العشرات الأخيرة من القرن الثامن عشر وفى العشرات الأولى من القرن التاسع عشر توافرت تيارات فكرية كثيرة فى أعقاب العهد الذى عاش فيه آدم سميث ... ولم تكن هذه التيارات كلها اجتهاداً علمياً خالصاً بل كان منها أدب وفلسفه وعاطفة ثائرة وثلا هذا كله شعور بتقصير العلم الرزين .. فكانت الاتجاهات العنيفة نتيجة منطقية لهذا التحول فى التاريخ الغريب لأوروبا بحيث أنه فى أواسط القرن التاسع عشر بدأت النذر الأولى للتحول الاشتراكى وفى هذا القدر من الربط بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر ما يكفى الآن . حتى تتضح معالم الطريق من بعد آدم سميث . وبهذا ينظم سير الأحداث من ظهور التجاريين إلى الطبيعيين .. ثم آدم سميث وهو فرد علم ثم المدارس القليلة التى ظهرت من بعده مباشرة إلى أن بدأت تيارات الاشتراكية تهب عنيفة من أواسط القرن التاسع عشر .. وهذا الذى تقرزه فى كلمات معدودات يضع المادة الاقتصادية فى إطار محكم من تتابع أحداث التاريخ القريب ، كما يضع العلامات الكبرى على مراحل نمو هذه المادة ، بما أضيف إليها من دراسات ، وفى حدود هذا الإطار الواضح نعود بشىء من البيان إلى الأدوار التى مرت بها جهود الاقتصاديين المعاصرين لآدم سميث فى أواخر حياته ولمن جاء من بعده بقليل

يقول الفريد مارشال : بأن الربع الأخير من القرن الثامن عشر يتميز باتجاه الكتاب إلى الدراسة التاريخية والدراسة الوصفية مع اتخاذ طبقات العمال وشئون معاشهم موضوعاً للكتابة فمثلا « آرثر يونج » استمر فى تسجيل مشاهداته التى جمعها بكثرة الترحال ، على حين أن « إيدن » عنى بكتابة تاريخ للفقر وللفقراء ، ويلاحظ هنا أن إشارتنا إلى الطبقات العاملة وإلى مشكلات الفقر إنما كانت تدون فى مجال الزراعة والحرف بوجه خاص ، إذ لم تكن الصناعة (بمعناها الحديث) قد ظهرت بعد وعلى الرغم من هذا التحديد الذى فرضته البيئة عندئذ على من تقدم ذكرهم من الكتاب فإن الآثار التى تركوها كانت معيناً لما تلاها

من دراسات اقتصادية ، كما كانت نماذج يقاس عليها عندما جاء دور الكتابة عن الأجراء في المصانع وعن الظروف القاسية التي عاشوا فيها ، حين تكاملت عناصر البيئة الصناعية .

ومن بين هذا الجمع من الكتاب الذين تأثروا بالتاريخ .. فريق توقف كل منهم عند قضية بعينها تتفق واستعداده أو تشبع ميله للبحث في ميدان محدد .. دون الدخول في جملة الدراسات الاقتصادية بأصولها وبفروعها ومن هؤلاء مالثاس وقد عكف على دراسة العوامل الحقيقية التي أدت إلى تزايد السكان على تتابع الأجيال وعلى اختلاف الأقطار وظروف العيش فيها . ولقد كان لبعض هؤلاء ، وعلى الأخص (مالثاس) نظريات بذأت لعهده متواضعة في غمار الدراسات والآراء وهي كثيرة ومتزاحمة ولكن أقوال « مالثاس » ظلت بعد حياته بعشرات السنين ، ثم بعد عهده بما يقرب من قرنين كاملين ، تحدث دويا لا يزداد على مر الزمان إلا شمولا لأطراف العالم ونفاذاً إلى أعماق كثير من الصدور ، ولا يقترب من نظرات مالثاس في السكان ، من هذه الناحية ، إلا الفكر الاشتراكي الذي بدأ ينتشر من أواسط القرن التاسع عشر ، فإذا به ينتشر وينتشر ولا يزداد دويه على مر الأيام إلا شمولا لأطراف العالم ونفاذاً إلى أعماق كثير من الصدور . ولذلك يلمس الباحث في الاقتصاد (بوجه عام) خلال مائتي عام مضت أن الكثير من المذاهب والنظريات يظهر ويختفي أو يتراجع إلى سجل التاريخ ويخفت صوته إلا هذين الفرعين المتميزين وهما « مخاوف مالثاس » وتحطيط الاشتراكية العالمية فهما يكسبان مع كل جيل مزيداً من اتساع رقعة الأرض التي تحفل بهما ومزيداً من الذوى العالب على غيره من الأصوات .

ظهر حديثاً :

الاقتصاد الإسلامي

بقلم

الدكتور : عبسى عبده

يطلب من دار نهضة مصر للطبع والنشر
١٨ شارع كامل صدقي ، بالفجالة — القاهرة
تليفون : ٩٠٩٨٢٧ ، ٩٠٨٨٩٥

بدون تعليق

اعترض الاتحاد الاشتراكي على قانون المجالس الشعبية لأنه لم يحذر نسبة النساء والشباب في عضوية المجلس الشعبي بالمحافظات .

- ٦ -

صعاب على الطريق

بقلم الدكتور عيسى عبده

عرفنا من البحث السابق أن فريقا من المحدثين قد أحصى أخطاء وقع فيها الاقتصاديون خلال القرن التاسع عشر . وقالوا بأنه من أهمها — تغليب النزعة — الفردية وإهمال الجماعة .. والظن بأن المنافسة الطليقة ظاهرة تصح في الحياة العملية كما تراءى للباحث في مراحل تصوره للنماذج والفروض التي يصرف إليها قدراته الذهنية

والقول بأن السعي الحثيث من جانب كل فرد إلى أن يحقق أقصى الخير لذاته سيؤدي تلقائياً إلى قدر مناسب من التوازن بفعل الفطرة التي تحكم سلوك البشر . وقال هؤلاء الكتاب أيضاً بأن هذه الأخطاء وأشباهها قد مهدت نفوس الملايين من الناس لقبول أي نداء يدعو إلى مايعارض هذا كله . فالنزعة الجماعية بوركت . فانتشرت ثم طغت . وحرية الفرد نفسدت ثم انتقصت وبورك التدخل حتى تطور إلى صور شتى من الرقابة . فالمشاركة فالحلول الكامل محل الفرد والجماعة والمنافسة أحيطت بالشكوك واستبعدت وأصبح التحكم أمراً واقعاً له عديد من الصور وساعد على انتشار هذه المرجة العاتية من الفكر الجامح .. إن لم يكن في الأرض التي صعت عليها حصون واقية أو ضوابط لاتلين . وإنما هو اجتهاد يعارضه اجتهاد . وأسماء تظفر وأخرى تغوص . فهذه تطورات وتلك تناقضات وثالثة يقال لها صراعات ومن حول مدارس الفكر والاجتهاد صفوف من الخلائق ، منهم مؤيدون ومنهم معارضون وكل حزب بما لديهم فرحون

تقدم الزمن (خلال القرن التاسع عشر) إذن والدراسات الاقتصادية تتراكم ويشيع فيها قدر من التردد والاضطراب فيما بين تفكير القرون الوسطى وبين نزعات الثورة الصناعية والثورة الفرنسية . ومن ذلك مثلا أن عاد رجال السياسة والحكم وكذلك التجار ورجال الأعمال إلى النظر من جديد في مشكلات النقود والتجارة الخارجية . عادوا لنشاط

يفوق ماسجله التاريخ لأشباههم ونظرائهم حول القرن الخامس عشر ، ومن ثم لم يتوافر للدراسات الاقتصادية قدر من الارتفاع فوق الأهواء الشخصية والمصالح المتعارضة .. ولذلك تزايدت الصعاب على الطريق .. طريق الفكر والتدبر فى الأمور الإنسانية . . على حين أن هذا الفكر بالذات (أعنى القوة العاقلة المدبرة فى الإنسان) - هذا الفكر كان يختزل من نجاح إلى توفيق فى الصناعات والفنون التطبيقية .. وهكذا اصطبغ القرن التاسع عشر (بوجه خاص) بصبغتين : إحداهما مزيد من القدرة على الإفادة بموارد الطبيعة وهباتها والأخرى مزيد من شقاء الإنسان !!

ولربما يقال بأن اشتغال رجال الحكم ورجال الأعمال بشئون الاقتصاد أى بأمور تتصل بانتاج الثروة وبعدالة التوزيع بين الأفراد وبين الشعوب . قد كان خيراً للانسانية إذ هؤلاء الساسة والتجار يجمعون بين التجارب ووفرة الاتصالات ، ولهم من هذا كله معين على حسن التقدير . ولكن التاريخ حفظ لهم غير ذلك . لأن كل فرد منهم قد كان يعتز بخبراته الخاصة ويطيل له أن يقتنع بها ثم يبنى عليها حكما عاما . وسنرى أمثلة عجيبة من مدارس الفكر الاقتصادى التى قعدت لهذا (العلم) كما يقولون . . أو لهذه الدراسات إذا أردنا دقة التعبير .

سنرى أمثلة من تعميم القواعد استناداً إلى مشاهدات فجة أو دراسة سطحية لبيئة صغيرة أو أحداث عارضة فى ظروف بعينها . أما الأهواء والمصالح الخاصة لفرد أو لشعب أو لجنس من البشر . فهذه أيضاً تركت بصمات واضحة على صفحات التاريخ الاقتصادى للعلم والأحداث جميعا .

ومن الأمثلة على مانقول به هذا النص الذى نورده حرفيا عن « الفريد مارشال » وهو بصدد الكلام عن ريكاردو قال مارشال : إن نظرية النقود - باعتبارها جزءاً من النظرية الاقتصادية بوجه عام - هى وحدها التى تمتاز كثيراً حين نبحث على ضوء الدافع الشخصى لحب المال دون التفات يذكر للدوافع الأخرى . وأن المدرسة المنهجية التى أقامها ريكاردو تكون فى مأمن من العثرات فى هذا المجال بالذات .

ثم يقول مارشال إن ريكاردو مذكور فى بعض المراجع على أنه نموذج صادق للرجل الإنجليزى . . وعندنا (عند مارشال) أن ريكاردو قد يكون أى شىء أو أى رجل إلا هذا الذى قيل عنه . ثم يستطرد مارشال مقرراً مايلى :

إن لريكاردو عبقرية فذة ونادرة بين الأمم لاتجد أصولها فى كونه من الانجليز . بل فى كونه من الشعب اليهودى ، وأن قدرته على التجريد وبناء الفروض معزولة عن واقع

الحياة . هى قدرة عجيبة لايدانيها إلا نظائرها فى فروع أخرى من الدراسات التجريدية التى أتقنها فريق من اليهود . ومن مزايا ريكاردو أنه لايخطىء حساب المراحل التى تمر بها دراسته حتى يصل إلى نتائج لايجد الباحث مطعنا عليها فى ظاهر الأمر .

ثم يقول مارشال ولكن الاقتصادى الانجليزى لايستطيع أن يسير فى أثر ريكاردو حتى يصل باقتناع إلى ما انتهى إليه هو، وكذلك قال عنه ناقدون من المدارس الاقتصادية الأخرى ، وزادو الأمر إيضاحا حين قرروا وأيدهم مارشال بأن ريكاردو هذا يعمد إلى الغموض حيث يتعذر على من يدرس أقواله أن يكشف عن أهدافه ، ذلك أنه لايريد الإفصاح بجلاء عما يريده آخر الأمر من دراسته فهو يبدأ بفرض معين ثم ينتقل إلى فرض آخر ، ولاسبيل إلى الإفادة بالنتائج التى وصل إليها على أساس كل الفرضين إن هى طبقت على مشكلات من واقع الحياة .

ويزيد مارشال قوله : أن ريكاردو لم يكتب للنشر وإنما كتب لنفسه وخاصته من حوله : فقد كان من رجال الأعمال كذلك المقربون إليه وكان هدفه من البحث العلمى أن يزيل الشكوك التى تساوره !! لقد كان واسع الاطلاع كثير التجارب ؛ ولكن معرفته لم تكن متوازنة ؛ بل جنحت إلى ناحية رب العمل والممول ؛ وأغفلت دراسة الكادحين فى طلب المعاش ؛ ومع ذلك أبدى شيئاً من العطف على العمال ؛ وتمثل عطفه هذا فى تأييده لصديقه هيوم حين قرر بأن للعمال أن يتساندوا فيما بينهم ؛ كما أن هذا الحق مكفول لرجال الأعمال حين يتكتلون لتحصين مراكزهم وهذا هو كل مايطبقه ريكاردو من إنصاف للمجاهدين فى سبيل أبسط مقومات الحياة .

فرغنا من النص الذى أورده مارشال عن ريكاردو وكلاهما من رجال الاقتصاد السياسى وإن كان الأخير - بحكم زمانه وعمله - أكبر قدراً من غير شك .

ضربنا هذا المثل حتى يتضح لنا أن بعض الصعاب التى اكتنفت طريق الدراسات الاقتصادية فى التاريخ القريب قد كانت ترجع إلى المسئوليات التى يحملها الاقتصاديون حين يكونون من رجال السياسة ؛ وإلى المصالح الشخصية التى تصبغ آراءهم بما يتفق وهذه المصالح حين يكونون من رجال الأعمال ؛ وإلى رواسب القرون فى أعماق النفوس كما هى عند العلماء الذين انحدروا من أصول سامية ؛ ونريد بهم اليهود وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ؛ إن هذه الدراسات وما يكملها من اجتماع وأجناس ونفس ومجتمع وقد اعترضت طريقها صعاب أشرنا إلى بعضها عن بعد ؛ بقصد التنبيه إلى حصاد الصورة الصناعية وحصاد الثورة الفرنسية ؛ أكان هذا الحصاد وردا نضير أشواك ؟؟

(يتبع)

صعاب على الطريق

بقلم الأستاذ الدكتور عيسى عبده

ثم عكف الاقتصاديون أيضاً خلال الحقبة ذاتها (القرن التاسع عشر) على معالجة النقص الذى تبدى مع الزمن . فى آراء آدم سميث بشأن التجارة الخارجية . . وأعدوا النظر فى الأسس الصحيحة لهذا النشاط العالمى الخطير .. وتأثروا بالمنهج الاستقرائى الذى يبدأ بالمشاهدة العلمية ، وجمع الحقائق . وهنا واجهت الدراسات الاقتصادية صعابا من طبائع الأشياء لقد اختلف بعض الحقائق عن بعض باختلاف البلاد .. فهذا بلد زراعى ، وذلك صناعى ، هذا متقدم والآخر متخلف .. ولكل من هذه المكونات الخاصة لاقتصاديات الإقليم أثر على تجارته الخارجية ، ولذلك لم يكن من الميسور الوصول إلى قواعد عامة .. ومن ثم نظرية واحدة لهذا الفرع الخطير من فروع النشاط الاقتصادى العالمى .

لقد تراخى بعض البلاد المعروفة بدراستها الاقتصادية المستمرة خلال مائتى عام مضت (كانجلترا) تراخى هذا البعض فى تركيز الاهتمام على كل ماله صلة بالاقتصاد المتخلف وهذا أمر يعيب البحث العلمى الخالص . . إن كان يهدف حقاً إلى خدمة الإنسانية برفع الكفاية وتقليل الضحية وزيادة الرفاهية للناس كافة . . أو لأكثرهم على أقل تقدير .

يقول بعض الثقات إن دراسة التجارة الخارجية بقدر كاف من الإحاطة . . يخرج إلى ميادين لاشأن للاقتصاد بها . . ولذلك تخلف بعض العلماء عن التوسع فى وضع نظريات عادلة للتجارة الخارجية تشمل بلاداً تنتج الخامات وتفيض عن حاجتها ولم تتوافر لها مقومات التصنيع . وتشمل بلادا لم يرزق أهلها دراية كافية فى التطبيقات الفنية ،

وأخرى لم ترزق من المراكز المميزة مايحمل لها الصدارة فى البحر أو عبر اليابسة . . وهكذا تفاوتت معدلات التبادل وزادت البلاد الغنية ، كما زادت البلاد الفقيرة حرمانا حتى أهدرت الحاجة آدميتها .. وكل ذلك لأن طريق الدراسات الاقتصادية لاتخلو من الصعاب ، والحق أنه مامن صعوبة لاتذلل .. إلا واحدة . . هى اقتناع الفرد بأن قدراته وهباته جميعا أمانة يسأل عنها .. وهى إنما وهبت له ليجعلها فى خدمة الإنسانية . لا لتكون أداة بطش، أو أداة استغلال .

ومن الكتاب الذين جاءوا بعد آدم سميث وكان لهم أثر عميق فى سير الدراسات الاقتصادية (بنثام) كان مقلا فيما كتب ولكن منهجه فى البحث والظروف التى عاش فيها بإنجلترا كان لها أثر فى تكوين آرائه التى اعتنقها كثيرون ممن جاءوا بعد آدم سميث ، ومن أجل ذلك كان بنثام جديراً بكلمة تربط جهوده بجملة الأدوار التى مر بها بناء الاقتصاد كما نعرفه اليوم، وبيان ذلك :

كان هذا الاقتصادى الانجليزى من الناطقة ، وكان عنيفا قاسيا فى الربط بين القيود وأسبابها، فما لم تكن هناك عوامل قوية تبرر تقييد نشاط الفرد، أو توجيهه ، أو حتى إصدار التعليمات إليه ممن يملك ذلك فإن بنثام كان عنيفاً فى تصديه لكل تدخل فى سلوك الأفراد، وساعده على التمسك بما ذهب إليه وانتشاره فى الأوساط العلمية ودوائر الأعمال فى انجلترا لعهده — ونجحت فى الإفادة من التطور السريع الذى مر به النشاط الاقتصادى العالمى، على حين أن أقطار أوربا تخلفت عن الركب ، وكان السبب الرئيسى هو تحرير السلوك الفردى فى هذا الخصوص — عند بنثام ومدرسته — من التقاليد والعادات وشتى القيود . مع تشجيع التصرف الفردى على أساسين : أحدهما الاعتراف بالمنافسة بغير شرط . والآخر التسليم بأن كل إنسان يبذل قصارى الجهد فى تحقيق أكثر الخير لنفسه ولمن يتصل به .

ويقول المؤرخون المنصفون من الانجليز : بأن هذه النزعة التى قواها «بنثام» وهى

النزعة الفردية مع المبالغة فى تقدير وزن المنافسة الطليقة (إن صح لها وجود بغير قيد) ويقول المؤرخون بأن هذه النزعة تدخل فى جملة الأخطاء التى وقع فيها الاقتصاديون الانجليز خلال القرن التاسع عشر ، ومن آثارها أنهم أغفلوا النزعة الجماعية التى انتشرت خارج انجلترا ثم تطورت وتفجرت فى كتابات الاشتراكيين ومن تابعهم ، ويعزو البعض من الكتاب ما كان من أمر الاقتصاديين الانجليز خلال القرن التاسع عشر ، ومتابعتهم لبنثام (فيمن تابعوا) إلا أن الدراسات الاقتصادية عندئذ كانت أقرب إلى دوائر الأعمال منها إلى دوائر البحث العلمى الخالص ، بمعنى أن كثيراً من الدارسين كانوا على صلات وثيقة بالمصالح الآخذة بالازدهار ، وكان اندفاع الفرد ومقامرته من العوامل الحاسمة فى تحقيق الثراء لنفسه ، وباجتماع الثروات الطائلة للكثيرين يكون ثراء المجتمع .. أما أن تكون الرفاهية موزعة على الجميع ، بحيث تصل فى جملتها إلى أكبر عدد أو إلى أعلى مستوى ، فلم يدخل شىء من ذلك فى حساب رجال الأعمال المهتمين بتشجيع الدراسات الاقتصادية وتأييدها فيما تتجه إليه من رأى يتفق وأحداث العصر .

ويقول آخرون أيضاً بأن (بنثام) ومن تابعه بالغوا فى اعتناق النزعة الفردية كما بالغوا فى البعد عن النزعة الجماعية لأسباب أملتها الفطرة .. فهم كانوا يطلبون الأمن على الحياة والولد والمال ، فى عهد أظلته الثورة الفرنسية القريبة من زمانهم ، وقد طغت فيها النزعة الجماعية الجامحة ، التى ظنت بأن تحقيق العدالة لا يكون إلا بتحطيم كل حصانة يعيش الفرد فى ظلها ويتلقاها عنه بنوه .. وذهب بعض الناقدين لبنثام إلى حد القول بأن طلبه للأمن وفقاً لمنهجه ، وفى ظل الرعب من أحداث الثورة الفرنسية ، حمله على أن يصل بحقوق الفرد والنظم التى تكفلها إلى حد القداسة ، ومن حيث إن بعض هذه النظم كان ظالماً فقد أخطأ كل من تعلق بوهم القداسة لنظم يضعها الإنسان ، ولذلك رأينا الصروح تتهاوى ولا تزال . وهكذا نرى أن زوال القداسة عن النظم التى يضعها الناس قد مهد لإعادة النظر فى جملة الأوضاع التى استمدت وجودها من الفكر وحده ، كما مهد لمحاولة الرجوع إلى مصدر آخر بخلاف الفكر الذى قد يضل وقد يهدى ، مالم ينشط فى إطار يمنعه من الخروج عن حدود طاقته ، ومن ثم كان للدين دوره مرة أخرى بعد أن طال احتجابه .